المحاضرة السابعة: الخطاب والنص والمتن

تتناول هذه المحاضرة المفاهيم الأساسية الثلاثة: الخطاب والنص والمتن، التي تشكل أركانًا جوهرية في الدراسات اللسانية والتحليلية. سنعمل على تحديد الأبعاد الاصطلاحية والمنهجية لكل منها، وكيف تتكامل أو تتباين هذه المفاهيم في تشكيل وحدات المعنى والتواصل. يهدف اللقاء إلى وضع حدود مفاهيمية واضحة تمكننا من فهم آليات الإنتاج والتلقي في اللغة.

أولا: مفهوم النص

التعريف اللغوي والاشتقاقي

يعود أصل كلمة "نص "لغوياً إلى الجذر "ن.ص.ص" الذي يحمل معاني الرفع والظهور والإسناد. ومن هذا المنطلق، يرتبط النص في المعنى القديم بالظهور والوضوح، أي ما تم إظهاره وتحديده. ويُشير العلّامة ابن منظور في "لسان العرب "إلى أن "نَصَّ الشيءَ: رَفَعَهُ"، كما نُصَّتِ القِدرُ أي رُفِعَتْ على الأثافي، مما يدل على معنى التثبيت والإقامة والوضوح. أما في الاستعمال الفقهي القديم، فالنص هو اللفظ الذي لا يحتمل إلا معنى واحداً، دلالةً على القطعية والإحكام.

مفهوم النص في الاصلاح

عرّفه روبيرت دي بوجراند (Robert de Beaugrande) وولفجانج دريسلر (Wolfgang Dressler) في كتابهما "مقدمة في لسانيات النص "بأنه "وحدة دلالية ذات كيان مُتماسك". ويقوم هذا التماسك على مبدأين أساسيين هما: الاتساق(Cohesion) ، الذي يتعلق بالروابط النحوية واللفظية بين الجمل، والانسجام(Coherence) الذي يتعلق بالترابط الدلالي والمنطقي بين أفكار النص وسياقه، وهما ما يُشكّلان "النصية.(Textuality) "

النص في النقد الأدبي والتحليل النقدي

في حقل النقد، تحوّل مفهوم النص من كونه مجرد هيكل لغوي إلى كونه بؤرة للمعنى والإنتاج الدلالي. ويرى رولان بارت (Roland Barthes) أن النص ممارسة دلالية تعيد للكلام طاقته الحيوية الفاعلة، وهو إنتاجية مستمرة العطاء، وليس مجرد منتوج، مشيراً إلى أن النص يكتسب خاصية التعددية والدينامية والمساهمة النشطة للقارئ. وبالتالي، يُنظر إلى النص كنسيج مفتوح على تأويلات لا نهائية، يتجاوز حدود المؤلف ليصبح فضاءً تفاعلياً تنتجه اللغة ذاتها في سياق ثقافي أوسع.

ثانيا: مفهوم الخطاب(Discourse)

المفهوم اللغوي والاشتقاقي للخطاب

اشتقاقياً، تعود كلمة الخطاب في اللغة العربية إلى الجذر "خ.ط.ب" الذي يدل على معاني المخاطبة والمحادثة والمواجهة، أي توجيه الكلام نحو الغير. أما في اللغات الغربية (Discourse)، فتعود إلى اللاتينية "Discursus" التي تعني الركض ذهاباً وإياباً، مما يوحي بمعنى الحركة وتداول الكلام. ونجد أن ابن منظور في "لسان العرب" يُعرِّف "الخِطاب" بأنه "مراجعة الكلام"، مما يرسخ فكرة أنه ليس مجرد كلام بل فعل تواصلي تبادلي.

الخطاب في الدراسات اللسانية والسوسيولسانية

في الدراسات اللسانية والسوسيولسانية، يُنظر إلى الخطاب على أنه اللغة أثناء الاستعمال الفعلي، أو مُمارسة تواصلية واجتماعية تأخذ في الحسبان السياق (Context) والفاعلين (المُنتِج والمُتلقي). وقد أوضح ميخائيل باختين (Mikhail Bakhtin) أن الخطاب يتسم بـ "التعدد الصوتي (Heteroglossia)"، بمعنى أنه مُفعم بنوايا وأصوات اجتماعية متعددة، كما جاء في كتابه "مشكلات شعرية دوستويفسكي". لذلك، لا يقتصر الخطاب على البنية اللغوية، بل يدرس وظيفتها وغرضها التأثيري.

يخالف "فان دايك" "هاريس" في تعريف الخطاب، إذ ينطلق في تفريقه بين الخطاب والنص ليصل إلى وضع تعريف لكل واحد منهما، ويرى أنّ الخطاب «في آن واحد فعل الإنتاج اللفظي ونتيجته الملموسة، والمسموعة، والمرئية، بينما النص هو مجموع البينات النسقية التي تتضمن الخطاب وتستوعبه»، فالخطاب عند "فان ديك" يتمثل في الميكانزيم الذي يحمل النص، وهو فعل هذا الإنتاج، والنتيجة التي تظهر من خلال الفعل، في حين أن النص هو مستوى بنيوي في عملية الإنتاج.

الخطاب في التحليل النقدي وعلاقته بالسلطة

في سياق التحليل النقدي للخطاب (Critical Discourse Analysis)، يُعدّ الخطاب أداةً لإنتاج وإعادة إنتاج السلطة والهيمنة الأيديولوجية. ويرى ميشيل فوكو (Michel Foucault) في كتابه "نظام الخطاب" أن "الخطاب ليس مجرد مجموعة من العلامات، بل هو ممارسة تفرض على الأشياء التي تتحدث عنها". أي أن الخطاب ليس محايداً، بل هو سلطة مُمارسة تُنظِّم المعرفة وتحدد ما يمكن قوله أو التفكير فيه في مجتمع مُعين.

يُشدد باختين على أن "دراسة الخطاب في حد ذاته بدون معرفة نحو أي شيء يتطلع خارجه هي في مثل عبثية دراسة عذاب أخلاقي بعيدا عن الواقع الذي يوجد مثبتا عليه والذي يحدده". يُشدّد باختين على ضرورة معرفة "الآخر المحيطة "التي أنتج عنها الخطاب. فالخطاب ليس ملفوظاً لغوياً مغلقاً بذاته، بل هو ناتج تفاعل بين المتكلم (المخاطِب) والواقع الذي يحيط به. لذلك، إذا لم يُدرك الناقد سياق الخطاب ومقامه، فإنه يفقد حلقة أساسية من حلقات المعرفة اللازمة للتحليل.

المحور الثالث: المتن (Corpus) والدراسة النقدية مفهوم المتن: مجموعة النصوص أو الخطابات المُختارة للدراسة والتحليل، أهمية المتن في البحث اللساني والنقدي، معايير اختيار المتن وتنظيمه.

المتن: الجذور التراثية والتمييز الجوهري

يبدأ مفهوم "المتن" رحلته من التراث العربي والإسلامي، حيث اكتسب دلالته الأكثر رسوخاً في علوم الحديث. في هذا السياق، يشير المتن إلى نص الحديث النبوي نفسه—أي الأقوال والأفعال المنسوبة للنبي صلى الله عليه وسلم— وهو جوهر المعلومة الدينية. يقابله مباشرة "الإسناد(Chain of Transmission) "، الذي يمثل السلسلة البشرية التي نقلت المتن. هذه العلاقة المتقابلة تبرز وظيفة المتن كالمحتوى الذي يُراد نقله وضمان صحته، بينما الإسناد هو الأداة المنهجية لتقييم مصداقية هذا النقل. وفي علوم الفقه واللغة، يطلق المتن على كتب المختصرات التي تقدم الأحكام والقواعد بعبارة موجزة ومُحكمة خالية من التفريعات أو الشروح المطولة، تمهيداً للحفظ والفهم الأولي.

المتن في النقد الحديث: المضمون الأساسي قبل التأويل

بالانتقال إلى الدراسات النقدية الحديثة ولسانيات النص، يحتفظ المتن بوظيفته الجوهرية كالمضمون الأساسي واللب الذي يسعى المحلل لاستخلاصه. يمثل المتن النقطة التي يمكن عندها تجريد الرسالة من الشكل اللغوي المعقد (النص) والسياق الإقناعي أو الاجتماعي (الخطاب). فإذا كان الخطاب هو الإطار الذي يحدد *لماذا وكيف قيل*، والنص هو *ما قيل*، فالمتن هو "الرسالة النقية" أو "الفكرة الخالصة "التي يحملها النص. هذا التجريد ضروري لتمكين التحليل من الوصول إلى الفكرة المركزية قبل أن تتشابك مع التأويلات الذاتية أو الانطباعات الهامشية التي قد تفرضها اللغة أو السياق.

وظيفة المتن في منظومة التحليل

في نموذج "الخطاب والنص والمتن"، يلعب المتن دور الهدف النهائي للتوصيل والتحليل. هو ما يتم "تشكيله" بواسطة النص عبر قواعد الاتساق والانسجام اللغوي، وما يتم "توجيهه" بواسطة الخطاب عبر قواعد السياق والسلطة. لفهم النص الإعلاني، مثلاً، قد يكون المتن هو مجرد "اشتر المنتج" أو "تحرك الآن"، مجرداً من الصور والأصوات والإيقاع الإعلاني (الخطاب)، ومجرداً من العبارات الجاذبة وتراكيب الجمل (النص). إنه الإجابة الأكثر إيجازاً عن سؤال: "ماذا يريد الكاتب أن يقول في جملة واحدة؟"، مما يجعله المحرك الصافي للمعنى داخل هذه المنظومة الثلاثية.

المحور الرابع: التداخل والتمايز (النص والخطاب) عرض العلاقة الجدلية بين النص والخطاب (هل الخطاب أعم؟ هل النص هو المظهر الشكلي للخطاب؟)، أمثلة تطبيقية تُميّز بينهما (مثال: جملة كنص وجملة في سياق تواصل كخطاب)

التداخل والتمايز بين النص والخطاب:

3. العلاقة بين النص والخطاب

تتسم العلاقة بين النص والخطاب بالجدلية والتداخل حيث اختلف الدارسون بين ثلاث وجهات نظر رئيسية:

أ. التداخل أو الترادف(Convergence)

- يرى بعض الباحثين أن المصطلحين متداخلان أو مترادفان في الاستعمال، خاصة في الدراسات الأكاديمية العربية، ويستعملان دون تمييز واضح بينهما

ب. الانفصال والتباين(Separation)

- يرى فريق من الباحثين أن المصطلحين منفصلان ويستعملان للدلالة على معان وقيم نوعية متباينة. يكمن التمييز بينهما في التركيز على السياق والتفاعل:

الخطاب: يفترض وجود سامع يتلقاه ويكون حاضراً ومتفاعلاً في عملية التلفظ.

النص: يتوجه إلى متلق غائب يتلقاه عن طريق القراءة، أي أنه يكون مثبتاً بالكتابة

ج. التكامل (النص جزء من الخطاب أو العكس)

- النص كشكل ثابت للخطاب: يرى بول ريكور أن النص هو خطاب تم تثبيته بواسطة الكتابة، مما يجعل الخطاب هو المفهوم الأعم (الفعل)، والنص هو المفهوم الأخص (المنتوج المكتوب).
- النص أساس الخطاب: يرى عبد المالك مرتاض أن النص شبكة من المعطيات تتضافر لتكون خطاباً

- تحليل النص جزء من تحليل الخطاب: يتضح أن تحليل النص جزء أساسي من تحليل الخطاب، حيث أن تحليل الخطاب لا يقتصر على التحليل اللساني للنصوص، بل يتجاوزه إلى دراسة السياق الخارجي للإنتاج والتلقي.
- التركيز على الوظيفة: يرى جونتر كريش (Gunther Kress) أنه إذا كانت المناقشات ذات الأساس اللغوي تركز على الجانب النصي (شكله وبنيته)، فإنها تتجه إلى الخطاب عندما يكون الموضوع هو وظيفة اللغة ودلالتها الاجتماعية.

1. العلاقة الجدلية: النص كبنية شكلية للخطاب

تُمثل العلاقة بين النص والخطاب علاقة جدلية تكاملية، إذ لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر، ولكن يمكن التمييز بينهما منهجياً. النظرة الأكثر شيوعاً هي أنَّ الخطاب أعم وأشمل من النص. فإذا كان النص (Text) هو البنية اللغوية الشكلية المُغلقة التي تضمنها خواص الاتساق (Cohesion) والتركيب النحوي (نظام الجمل)، فإن الخطاب (Discourse) هو الممارسة التداولية والوظيفية لتلك البنية. فالنص هو المظهر اللغوي المادي، في حين أن الخطاب هو التطبيق والسياق والمقصد وراء هذا المظهر.

2. أيهما أعم؟ الخطاب أم النص؟

الخطاب وفقاً لآدم هو الناتج التوليدي (الخارجي) الذي ينتج عن تفاعل البنية اللغوية (النص) مع محيطها (السياق). هذه المعادلة البسيطة تؤكد على أن الخطاب ليس مجرد لغة، بل هو ممارسة تواصلية، أي "لغة في حالة استعمال " فعلي. هذه النتيجة تتوافق مع الأطروحات النقدية الكبرى التي تربط الخطاب بالوظيفة والأيديولوجيا، حيث أن الخطاب دائماً ما يكون مُوجّهاً، هادفاً، ومُتضمّناً لنية لا يمكن استخلاصها من تراكيبه اللغوية المعزولة. وبالتالي، فإن المقولة تقدم نموذجاً واضحاً للمنهج النقدي: لتحليل الخطاب، يجب تفكيك النص أولاً، ثم إعادة تركيبه ضمن سياقاته المنشئة.

يُمكن القول إن الخطاب أعم من النص، لأنه يحيط بالنص ويحتويه ويكشف عن دلالاته العميقة. فالخطاب يُعنى بما هو خارج النص (المُتكلّم، المُتلقي، الظروف التاريخية، الأيديولوجيا)، بينما يركز النص على البنية الداخلية (الروابط النحوية والمعجمية). وقد لخّص صلاح فضل هذه العلاقة بالقول: "النص هو العبارة، والخطاب هو التعبير"، أي أن الخطاب هو الذي يمنح العبارة وظيفتها وفعاليتها وغرضها التواصلي، متجاوزاً بذلك مجرد الحروف والجمل.